الصلات الفكرية بين مصر والبلاد العربية

كان « الفكر » وما زال هذه الأداة الحية التى تربط بين الأمم والشعوب ، قديمها وحديثها ، سواء منها التى تتلاقى فى منازعها القومية وخصائصها الروحية أم تلك التى تثور بينها الأحقاد والخصومات وتنتهى إلى الحروب والقتال ؛ ذلك لأن عالم الفكر — عالم واسع الآماد لا يعرف حدود الزمن ولا حدود الوطن . . . فقد تثور بعض الهواجس فترسم صوراً من الخصومات ولكن ما تلبث أن تتلاشى حين يطل «الفكر» من عليائه ليرسل تلك النبرات المنطلقة من فيض الروح وفيض القلب وفيض الوجدان . . .

إن « عالم الفكر » عالم مشع تتلاقى عند آفاقه شتى الثقافات ومختلف الحضارات ، وتذوب عند أقدامه الكثير من هذه الأوشاب ، أو شاب الأحقاد والضغائن والمنازعات .

وكثيراً ما تقوم خصومة بين أمة وأمة فتثور على أثرها النفوس ، وتستيقظ الضغائن ، وتطول الخصومات ولكن ما تلبث أن تخمد ثورة النفوس وتتلاشى نيران الضغائن على صيحة شاعر فيلسوف ، أو خطبة مفكر أديب ، أو دعوة صحفى أريب يهيب بالأمتين إلى التصافى ونسيان الخصومات ودفن الأحقاد ، والعمل يداً واحدة فى سبيل الألفة والأخوة والتصافى والوئام . . .

* * *

إن العالم على اتساع رقعته ، وعلى ما بين أممه من خصومات ومنازعات — تراه فى عالم الفكر ، كأنه عالم واحد ، وقد رأينا فى الحربين العالميتين المنصرمتين أموراً عجيبة تدل على أن « عالم الفكر » قد تحرر أو كاد من هذه القيود التى تعمل للتفريق بين منازع الأمم — بين اتجاهاتها الفكرية مثلا . . . فقد كان الجنود الانكليز ، وهم فى قتالهم الضارى مع الجنود الألمان — كانوا يجدون فى موسيقى واغنر ويتهوفن هذه الروحانية المسكرة التى تنقلهم من عالم الدم والنار

إلى عالم السحر وفيض الأنغام . أى أن كرههم الأسود للألمـــان ما كان ليحول دون الاستمتاع بتلك النفحات العلوية التى أبدعتها الموسيقى الألمـــانية .

كما أن المعارك الضارية التى كان يشنها الانكليز على الألمـــان ما كانت لتمنع الجنود الألمـــان أن يشهدوا تمثيليات شكسبير ؛ . . وإن دل هذا على شىء فعلى أن « عالم الفكر » هو العالم المثالى الذى تنشده النفوس سواء كانت فى نضالها الدامى أو فى تأملها الذاتى . . .

وما نقوله عن عالم الفكر ، نقوله عن عالم الأدب ، والأدب بعض أدوات الفكر . فقد كان الأدب ، وما يزال ، وسيلة من وسائل الاتصال بين الأمم والشعوب ، بل هو عنصر قوى فى تحقيق هذا الاتصال . . .

ولا ينكر أحد ما للتبادل الثقافى من أثر فى تنمية العلاقات بين الأمم حتى التى تختلف لغاتها وعاداتها وتقاليدها فكيف بالأمم التى تكون ذات لغات وتقاليد وعادات واحدة ؟ .

هنا ، يلعب الأدب دوره القوى فى توثيق هذه الصلات التى تزداد قوة كلما نفخ الأدباء فى روحها وعملوا على دعم اسمها وتوثيق أواصرها .

ولست فى حاجة لأن أقيم الدليل على صحة ما أذهب إليه فى كلامى هذا ، فالصلات الفكرية بين مصر والبلاد العربية — صلات موجودة منذ القدم . وهى تزداد قوة اليوم بعد اليوم ، فقد اتجهت البلاد العربية إلى مصر منذ مئة سنة أو أكثر تتبع خطواتها فى ميدان التحرر الفكرى ولا سيما وقد أتيح لمصر أن تتخلص من الكابوس العثمانى قبل غيرها من البلاد العربية ، وأن توثق صلاتها بأوروبا فتغترف من ينابيعها بعض ما يبدد تلك الظلمات المتكاثفة التى كانت تخيم على ربوعها .

ولا أريد أن أؤرخ تلك الأحداث واحدة واحدة ، منذ حملة نابليون إلى عهد محمـــد على ، إلى المراحل التى مرت منذ تلك الفترة ، إلى يومنا هذا ، فتلك مراحل معروفة نقرأ فى سطورها صفحات مشرقة من تشابك الصلات والعلاقات . ولكنى أريد أن أشير إشارة خاطفة إلى المظاهر التى كان لها أثرها فى توثيق هذه الصلات . . وهى كثيرة . . ولأذكر فى طليعة هذه العوامل المؤثرات الأدبية ؛

فقد لعب الأدب ولعبت الصحافة دورهما الكبير فى تنمية هـــذه الصلات . . فقصائد البارودى واسماعيل صبرى وشوقى والمطران وحافظ كانت ذا أثر سحرى فى إثارة النفوس ، كما كان لمقالات الكتاب وصيحات المصلحين ، وفى طليعتهم محمد عبده وقاسم أمين وأحمد فتحى زغلول وولى الدين يكن أكبر الأثر فى تنمية العقول وهز الوسنانين .

كانت هذه الصيحات تجد صداها القوى فى البلاد العربية . . . فما يكاد شوقى يعبر عن نزعة من هذه النزعات التى كانت تحسها البلاد العربية حتى يردد الزهاوى من العراق نبرات هذا الصدى .

أى إن الشعر والصحافة الأدبية هى التى رسمت منذ نصف قرن أو أكثر إطار « الوحدة العربية » التى يبحثها « الرسميون » اليوم من رجالات العروبة فى أروقة الوزارات بروح من التزمت والحذر وعدم الانطلاق ؛

وكما كان للشعر وللنثر أثرهما فى التوجيه وتوثيق هذه الصلات فقد كان للصحافة أثرها الكبير فى هذا المضمار — أريد الصحافة السياسية والأدبية معاً ، ولا يستطيع أن ينكر أحد ما كان « للمؤيد » والأهرام و « اللواء » و « المقطم » و « المقتطف » و « الهلال » من أثر بليغ فى اجتذاب النفوس إلى مصر التى كانت ولا تزال مصدر إشعاع عظيم فى توجيه البلاد العربية إلى التحرر من العسف والظلم والجهل والتقاليد . . ومصر منذ القدم موئل الأحرار من رجالات الفكر من مختلف البلاد العربية . وقد كانت الصحافة سبيلهم للتعبير عن آرائهم الاصلاحية ونزعاتهم التوجيهية .

ولتطور الصحافة المصرية ، خلال هذه الفترات التى أعقبت الحربين العالميتين أثره البليغ فى توثيق الصلات الفكرية وتنمية العلاقات الروحية بين مصر والبلاد العربية . فما من بيت اليوم ، فى دنيا العرب ، أريد بيوت المثقفين ، لم تدخله صحيفة من صحف مصر ، ولاسيما الصحف المصورة . إن الصحافة المصرية تلعب دوراً خطيراً فى تنمية هذه العلاقات . . وقد زاد فى قيمتها أن مباحثها لا تقف عند حدود مصر بل تتعداها إلى حدود البلاد العربية تبحث مشاكلها ومنازعها القومية والاجتماعية والسياسية ، ولا أتحدث عن اهتمامها بشئون

العـــالم واعتمادها على مراسلين أفذاذ لهم مكانتهم السامية فى الأروقة الدولية ؛ فهذا ما يلمسه كل متتبع للنشاط الذى تبديه الصحافة المصرية .

فقد بلغت الصحافة المصرية — والحق يقال — الأوج ، وهى مافتئت تبذل أعظم الجهود لتقدم للقارئ العربى أبعد ما تتطلبه نفسه فى شتى فنون المعرفة .

فالصحيفة اليومية والأسبوعية والشهرية — إن هذه الصحف تعمل ، كل واحدة فى نظامها عمل الحبابرة لخلق الوحدة الكبرى بين الأقطار العربية ، إنها تمهد للوثبة المنتظرة التى يرتقبها العرب فى يوم أرجو أن لا يطول بالرغم من الصدمة الأليمة التى واجهتهم فى كارثة فلسطين ؛

إن مجال الكلام عن الصحافة المصرية واسع جداً . . . وكنت أود أن أتوسع أكثر من هذا لو كان موضوعى يقتصر على الصحافة ، بل موضوعى هو عدّ هذه العلاقات التى تربط مصر بالبلاد العربية ، والصحافة من أقوى هذه العلاقات . .

* * *

لقد بدأت هذه العلاقات ، كما قلت ، بصيحات الشعر ، ثم بتوجيهات الأدباء والكتاب عن طريق الصحافة . . ثم بهذه الرحلات التى قام بها بعض كبار الكتاب المصريين وتعرفهم على حقيقة العالم العربى وكتابتهم الكثير من المقالات التى تشرح شئونه وشجونه . وكان العالم العربى بمختلف أقطاره ، بالنسبة لمصر ، أشبه بالمناطق المجهولة ، وكان الشاميون والعراقيون يتندرون بالكثير من الأخطاء الفاشية التى يقع فيها كثير من المصريين . . ولا أضرب الأمثال فهى كثيرة . . ونحمد الله أن أثر هذا الجهل قد أخذ يخف ويتلاشى بفضل ما تنشره الصحافة وما يكتبه الكتاب المصريون الذين كثرت زيارتهم إلى الأقطار العربية وعادوا يدونون الكثير من الآراء والأفكار . .

وفى طليعة هؤلاء الكتاب الذين اهتموا بالشئون العربية الأساتذة الدكتور محمود عزمى ، والمازنى ، رحمه الله ، والدكتور هيكل ، والدكتور أحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، والعبادى ، وعوض وغيرهم وغيرهم من فحول الأدباء المصريين .

* * *

هذا ، ومن العوامل التى كان لها أثرها فى هذا المضمار « الفرق التمثيلية » وقد خفت زيارتها للبلاد العربية بعد أن غزت الأفلام السينمائية هذه الأقطار . . وتؤثر « الأفلام المصرية » تأثيراً بليغاً فى البيئات الشعبية . ولا أريد أن أتحدث هنا عن « الفيلم المصرى » وقيمته الفنية وكيف تنحدر أكثر هذه الأفلام بالذوق إلى الحضيض . فان أكثر القصص تقوم على مواضيع تافهة ونكات باردة ورقصات لا تمت إلى الفن بصلة ؛ إننى لا أريد هنا أن أتكلم عن الفيلم المصرى الذى لم يتقدم من ناحية الفكرة عما كان عليه قبل عشر سنوات بالرغم من جميع الوسائل التى تهيأ له ، بل أخذ ينحدر ، وهو اليوم هزء الطبقات المثقفة التى كانت تريد أداة حية من أدوات النهوض بالمستوى الاجتماعى ، نعم ، إنى لا أريد أن أتكلم عن « الفيلم المصرى » لأنه يخرج عن نطاق موضوعى وإن كان أثره فى التقريب بين مختلف الأوساط الشعبية ، غير منكور .

* * *

إن جميع هذه العوامل كان لها تأثير مباشر فى تقوية أواصر هذه الصلات التى تنمو نمواً مطرداً اليوم بعد اليوم .

ولا نستطيع أن ننكر فى هذا المضمار الظاهرة الجديدة فى توثيق هذه العلاقات وهى اتجاه طلاب العرب إلى معاهد مصر وجامعاتها ، وقد كان أكثرهم يوجه وجهه شطر أوروبا . ثم ما تقوم به وزارة المعارف من إمداد البلاد العربية بالأساتذة المصريين يعملون فى مختلف المعـــاهد والمدارس منـــذ خمس عشرة سنة تقريباً .

وللتبادل الثقافى أو « للإدارة الثقافية » أثرها الكبير فى تنمية هذه الصلات، التى بدأت فى المؤتمرات التى تعقدها ؛ توحد الميول وتقرب الأهداف ، وتوجه النزعات توجيهاً واحداً فى شتى القضايا ولا سيما فى الشئون القومية .

ولا أريد فى نهاية هذا الكلام أن أنسى أكبر عامل له أثره الموجه فى تنمية أواصر هذه العلاقات . وأريد به « الكتاب المصرى » أو « المؤلف المصرى » وهما شىء واحد . فقد عمل الكتاب الذى يصدر عن المطبعة المصرية عمله الكبير فى تغذية العقل العربى وفى خلق وحدة فكرية مشتركة .

إن جميع هذه التيارات منفردة ومجتمعة هى التى مهدت لتكوين الرأى العام العربى . ولا أريد أن أشير إلى الايحاءات الرسمية التى انبثقت عنها « الجامعة العربية » ولجانها السياسية والاقتصادية والثقافية، وقد أشرت إلى الأخيرة إشارة موجزة ، فهذا هو المرحلة الثانية لدخول هذه العلاقات فى طورها الرسمى ، وهو يخرج عن صدد موضوعنا . وكل ما نرجوه ، وقد اختمرت الأذهان والعقول للوحدة الكبرى — كل ما نرجوه من الحكومات العربية ، وقد أصبح الطريق أمامها ممهداً — بحكم هذه العلاقات التى تتوثق اليوم بعد اليوم — أن يعملوا منطلقين بروح الإيحاء الذى تحسه الشعوب العربيـــة ليكون للعرب وزنهم فى المعترك الدولى .

سامى الكيالى

obeikandl.com